

المسائل الشرعية في رحلة أبي سالم العياشي الحجازية (1661م-1663م)

نورالدين مولاي

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان noureddine.moulai@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2026/02/19

تاريخ القبول: 2026/05/22

ملخص:

إنّ أدب الرحلة بما يسجله من ملاحظات ومشاهدات هو عملية رصد ميداني عميق للآراء في بيئتها، فمن خلال ما يدونه الرحالة يمكن الاطلاع على نوعية الأفكار السائدة في زمن الرحلة ومسارها، ولأنّ رحلة أبي سالم العياشي جاءت في مرحلة زمنية مهمة فإنّ ما فيها من مسائل شرعية وقضايا اجتماعية تعطي صورة واقعية عن الحالة الفكرية التي كانت تعيشها المجتمعات التي مرّ بها، خاصة القضايا ذات البعد الغيبي، فدراسة اهتمامات الرحالة تكشف جانباً مستوًى الوعي السائد بمتطلبات المرحلة ونوعية الأفكار المتحكمة فيها.

كلمات مفتاحية: العياشي، الرحلة، المسائل الشرعية.

Abstract:

The literature of the journey, with its observations and observations, is a process of field monitoring of opinions in its environment. Through what the traveller records, it is possible to see the quality of the ideas prevailing at the time of the journey and its course, and because the journey of Abu Salem Al-Ayyashi came at an important period of time, its legal issues and social issues bring closer the picture of the intellectual situation in the Muslim countries in that period, especially issues with a mystical dimension,

.Keywords: Al-Ayyashi, journey, occultism, legal issues.

1. مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

لطالما كانت الرحلات والأسفار على ما فيها من شدائد وأخطار من أهم التجارب الإنسانية الناقلة للمعارف والواصلات بين الحضارات، فالمغادر من بيئته مهما كانت بواعثه يبقى دائماً همزة وصل بين دياره التي خرج منها وبين البلاد المختلفة التي يدخلها، لا فرق في ذلك بين من خرج من أرضه متعلماً أو تاجراً أو مستكشفاً أو حتى غازيً.

لقد حدثنا التاريخ في دفاتره عن تلك المعارف والأفكار المتناثرة في الحضارات الغابرة وكيف زرعتها العابرون في طريقهم، فلا يكاد يعرف لها صاحب تنسب إليه أو بدايات تحدّ بها، بل إنّ التنقيب العميق عن جذور كثير من ثقافات الشعوب وعوائدها في مأكليها ومشربها وملبسها يظهر دور أولئك الضارين في الأرض في نقل بذور تلك الأعراف المجتمعية من بيئة إلى أخرى، في حركة دائرة دؤوبة تجعل من العسير معرفة البلد الذي نشأت فيه تلك العادات وتحديد الزمن الذي تشكلت فيه تلك الثقافات.

إنّ الرحلة في حقيقتها هي تجربة إنسانية متميزة لما فيها من تأثير وتأثر، إنّ هذه الميز التي تطبع كتب الرحلات تنوع بحسب زمانها ومكانة صاحبها وثقافته، ولا تكتمل فصولها إلا بتدوينها وتقييدها في كتاب، وهذا ما يضمن لها الاستمرار في الزمن، فتظل على مرّ الأيام رحلة متاحة لكل من يبحر في صفحاتها ويغوص في أحداثها الماتعة.

ولا يخفى على ناظر في أدب الرحلة العالمي أنّ للحضارة الإسلامية مساهمات سجل حضورها سبقاً وتميزاً على غيره، فمكتباتها عامرة بأسفار قيد فيها الرحالة المسلمون عبر العصور مشاهداتهم في السفر والإقامة، وأسلوبها الشائق الذي يسرد تلك المشاهدات لا يُعنى فقط بغرائب الأخبار - وإن كان فيه من ذلك الشيء الكثير - بل فيه أيضاً رصد تاريخي موثق لعادات البلاد المختلفة وسلوك مجتمعاتها في قوالب أدبية رفيعة.

فالوقائع والأحداث والمشاهدات التي يسجلها الرحالة هي رصد ميداني حي للعلائق المعرفية والوشائج الثقافية الممتدة بين أقطار العالم الإسلامي المتباعد جغرافياً والمتقارب وجدانياً، فليس هو أدب محض الغرض منه إشباع السمع بعجائب الأسفار فقط، ولا هو كتاب إمتاع ومؤانسة لا غير، بل هو أكثر من ذلك، فهو يمثل وثيقة معاينة كاشفة للروابط المتينة التي تحفظ تلك العلائق وتقوي تلك الوشائج.

إنّ عملاً يوثق العلاقات الظاهرة والوشائج العميقة بين المجتمعات المتداخلة ليس وظيفة سهلة، بل هو عمل شاق لا يطيقه إلا من كان له عقل ثاقب ونظر فاحص، وهذا التميز في الطرح والنقد هو ما يجعل أدب الرحلة عملاً فريداً في بابه، فمواضيعه المتنوعة والمتداخلة ما كان لها أن تتم دون تلقيح المعارف السائدة بالأفكار الوافدة في حواضر المرور والعبور، وما كان لقضاياها ومسائلها أن تلقى القبول عند الدارسين دون تقريب بين الفهوم المتباعدة وتليين للخلافات المستعصية، وما كان لهم أيضاً أن يستفيدوا من هذا التوثيق الدقيق دون نقد جريء من صاحبه لما يراه ويشاهده.

فالرحالة ليس ناقل خبر محايد، بل هو صاحب فكر ورأي ومذهب يؤثر ويتأثر، ويحرص في كل مكان حل فيه على تسجيل ما يراه يستحق التسجيل والتقييد، ومناقشته من منظور ما يراه هو صواباً ثم كتابة خلاصة ما صل إليه فكره، فيتزود من كل محلة بفكرة جديدة بعد أن يطرح فيها آراءً جريئة، فهو دائم التفاعل مع بيئة العبور ينقل إليها ومنها الآراء والأفكار.

إنّ أهم ما يمكن لصاحب الرحلة القيام به زيادة على الوصف الظاهر للحواضر والبوادي هو الغوص في عالم الأفكار السائدة في زمان الرحلة ومسارها، فإن كان من أهل العلم كان النفع من جهته أعظم، لما في سفره من ذكر للجلسات العلمية الجامعة والمحاورات الفكرية، خاصة تلك المتعلقة بالمسائل الشرعية في الفتوى والنوازل، والتي حرص أدب الرحلة على تسجيلها لما فيها من تلاقح فكري عالٍ بين النخب العلمية المتناثرة في حواضر العالم الإسلامي الفسيح، والتي وإن تباعدت مكانياً إلا أنّ بينها روابط معرفية وأواصر علمية قربت بينها ثقافياً.

وتعتبر رحلة أبي سالم العياشي إلى بلاد الحجاز (1661م-1663م) من أهم الرحلات العابرة المدونة، ومسارها الممتد من أقاصي بلاد المغرب إلى قلب الجزيرة العربية يشهد لهذا العبور المتميز في ذلك الزمن، ومن الأسباب الرئيسية التي جعلت لهذه الرحلة أهميتها الخاصة أنّ صاحبها معدود في علماء ذلك الزمن الذين لهم إحاطة ودراية بأهم المسائل الشرعية التي كانت تشغل المسلمين في عصره، وهو أيضاً صاحب نظر فاحص ورؤية نقدية لكثير من الأحداث التي شهدتها في رحلته انطلاقاً من بلده وصولاً إلى بلاد الحرمين، وقيدتها في كتابه المعروف بماء الموائد أو رحلة أبي سالم العياشي، وهو كتاب ثري بمسائل شتى وبقضايا متنوعة عرضت له في البلاد التي نزل بها وتكتسب أهميتها من صاحب الرحلة نفسه فقد كان من العلماء المشهود لهم بالملكة الفقهية العالية وبالاطلاع الشرعي الواسع الذي يظهر في تعقيباته ومناقشاته.

إشكالية البحث:

تحاول هذ الورقة البحثية الإجابة عن ثلاثة أسئلة محورية وهي:

ما هي أهم الاهتمامات الدينية الي كانت سائدة في عصر العياشي من خلال كتاب رحلته؟ وما هو أثر تلك الاهتمامات في صناعة وعي الناس بالزمان الذي يعيشون فيه؟ وكيف يمكن الكشف عن أفكار ذلك الزمن من خلال دراسة المسائل الشرعية التي أكثر العياشي من ذكرها وتفصيلها في كتاب رحلته؟

القضايا الأساسية:

تحاول هذه الورقة من خلال دراسة بعض المسائل الشرعية التي تعرض لها العياشي الكشف عن بعض القضايا التي كانت تشغل المسلمين في القرن الحادي عشر للهجرة السابع عشر للميلاد، وهي فترة زمنية فارقة كانت تشهد فيها أوربا نهضتها الفكرية والعلمية، فالقضية الأساسية لهذه الورقة هي رصد الاهتمامات العامة والخاصة المتعلقة بالدين والحياة، والتي يمكن من خلالها معرفة نوعية الأفكار السائدة في ذلك الوقت ومدى تأثيرها في الوعي الجمعي، ثم بيان التمدد الأفقي لتلك القضايا ذات الاهتمام المشترك من خلال المسائل الشرعية ذات الاهتمام الواسع.

الفرضيات:

تنطلق هذه الدراسة من فرضيات ثابتة يمكن إبرازها في النقاط التالية:

- إنَّ الوحدة الثقافية والتكامل المعرفي الذي يصطبغ به العالم الإسلامي هو ثمرة وحدة مصادرها المعرفية وقيمها الأخلاقية.
- إنَّ القنوات المعرفية الواصلة بين حواضر العالم الإسلامي والمتمثلة في علمائه ومفكره ونخبه العلمية والأدبية قد جعلت منه جسماً واحداً تنتقل فيه الأفكار من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب بسلاسة ويسر، لم تمنعها من العبور والتنقل ظروف الطبيعة القاسية ولا الخلافات السياسية الطارئة.
- يمثل العلماء والفقهاء في العالم الإسلامي عقد الاتصال وقنوات الربط بين حواضره المختلفة لمكانتهم المحترمة ومرجعيتهم الموثوقة في كل البلاد التي يدخلونها على اختلاف مذاهبهم الفقهية وانتماءاتهم الجغرافية وولاءاتهم السياسية.

المنهج العلمي والخطوة:

تعتمد هذه الورقة البحثية الاستقراء أداةً بحثية لتتبع المسائل الشرعية في كتاب رحلة العياشي ثم بعد ذلك ستعتمد المنهج التحليلي لدراساتها، قصد بيان الجوانب الشرعية للمسألة المدروسة ثم آثارها الفكرية في تلك البيئة، ولا تسعى هذه الورقة إلى استقصاء الخلاف الفقهي عند دراسة تلك المسائل إذا لا يهمننا الترجيح بقدر ما يهمننا الأثر، فالغرض هو الكشف عن نوع الأفكار وعمقها في تلك البيئة من خلال المسائل الشرعية ذات الاهتمام المشترك.

أما الخطوة فتتكون من محورين أساسيين هما:

المحور الأول: أهمية الرحلة وخصائص الرحالة.

المحور الثاني: مسائل العياشي في رحلته.

ثم خاتمة بأهم النتائج المتوصل إليها.

2. أهمية الرحلة العياشية وخصائص صاحبها.

إنّ الثراء المعرفي للرحلات هو أهمّ ميزة تفاضل بينها، وتعري بالبحث والتنقيب في ثنايا فصولها، فكلما كانت الرحلة واسعة المجال متعددة المعارف كلما زادت عناية الباحثين بها على اختلاف مشارهم التخصصية، وذلك أنّ دواوين الرحلات لا تعنى بفن واحد بل فيها أولواناً من أطياف شتى، على حسب ما يعرض للرحالة من مسائل وقضايا في سفره وإقامته، والتي يقوم بنقاشها وردّها إلى أصولها العلمية، ثم إخراجها بأسلوب سردي لا يخلو من خيال وتشويق في كثير من الأحيان.

ومن صور هذه الموسوعية في دواوين الرحلات ما سطره أبي سالم العياشي في كتاب رحلته المسمى "ماء الموائد"، فهو ديوان تناول صاحبه العديد من المسائل في فنون شتى، أنالته حظوة عابرة للتخصصات، فهي رحلة شائقة بأسلوبها مثقلة بفوائدها بديعة بلطائفها عجيبة بغرائبها، فيها سرديات نابغة من الواقع لكنها أحياناً تُجنح مع الأساطير في مزج عجيب بين الحقيقة والخيال.

إنّ جاذبية الفنون التي اصطبغت بها رحلة العياشي قد خطفت إليها أنظار الباحثين ووسعت حولها دائرة الدارسين، فعلى كثرة الرحلات الحجازية قبلها وبعدها إلا أنّ لهذه الرحلة مكانة فريدة، فهي على حدّ وصف بعض الدارسين أعظم رحلات أهل المغرب العلمية.¹

¹ - عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، بيروت، دار الفكر، 1997م، ص: 248.

فمنذ دخول الإسلام شمال إفريقيا في القرن الأول الهجري-السابع الميلادي-لم تنقطع القوافل الواصلة بين بلاد المغرب والحجاز لما يزيد على ألف ومئة عام، حافظت فيها هذه القوافل على خط سيرها على اختلاف الممالك وتعاقب السلطنات، واستمرت في هذا المسير إلى أن جاء الاستعمار الحديث في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي فأوقف انسياب هذه المواكب وأخضعها لواقع جديد.

لقد كانت رحلة أبي سالم العياشي الحجازية في أواسط القرن السابع عشر للميلاد من أواخر الرحلات الشاهدة على تلك القوافل المغاربية السائرة نحو بلاد الحجاز وجسد الأمة ما زال سالماً، يتصل غربه بشرقه، قبل الهجمة الاستعمارية بحوالي مئة وخمسين عام، وهذه فترة زمنية فارقة في تاريخ الأمة، كانت تشهد أمارات سقوطها المدوي الذي سيحل بدولها الواحدة تلو الأخرى بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان، ويجعلها رهينة لواقع استعماري ما زالت نتائجه قائمة إلى اليوم.

ليس لرحلة العياشي فرادة في مسارها فقد كانت قوافل الحجيج والتجار تشق الصحراء الكبرى نحو الشرق قبلها وبعدها ولكن فرادتها في كونها رحلة مليئة بالفوائد العلمية واللطائف الأدبية، قيدها عالم بصير بأقوال أهل زمانه خلافاً ومذهباً، شغوف بمناقشة المسائل الشرعية والأدبية واللغوية.

1.2. أبو سالم العياشي وبيئته:

ولد أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي سنة (1037هـ) الموافق (1628م) في قبيلة آيت أعياش،² وهي قبيلة بربرية تعيش على سهل منبسط في سفح جبل العياشي الواقع ضمن سلسلة جبال الأطلس الجنوبي من بلاد المغرب، غير بعيد عن مدينة سجلماسة التاريخية، وتقع ديار هذه القبيلة في منطقة عبور هامة، تمر بها أغلب القوافل المتجهة جنوباً نحو فضاءات الصحراء الكبرى.³

وكان والده أبو عبد الله محمد بن أبي بكر العياشي مؤسس الزاوية العياشية من كبار مريدي الزاوية الدلائية الشاذلية التي كان لها نفوذ روحي وسياسي واسع بين قبائل جبال الأطلس من بلاد المغرب الأقصى، وقد أسس زاويته بتكليف من شيخه محمد الدلائي حتى تكون فرعاً للزاوية الأم على طريق القوافل الاستراتيجية، ونقطة جذب واستقطاب وتوجيه للقبائل المتحالفة تحت زعامة الدلائيين، ومركزاً

² - ينظر أبو سالم العياشي، اتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، تحقيق محمد الزّاهي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، ص: 22.

³ - ينظر محمد الحجي، الزاوية الدلائية ودورها العلمي والديني والسياسي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1988م، ص: 64.

تعليمياً وتربوياً هاماً يدعو الناس ويعلمهم، ويطعم الفقراء وعابري السبيل، ويعطي الأوراد للمردين والسالكين.⁴

لقد كان هذا الحلف القبلي بزعامة الزاوية الدلائية يوفر للمنضوين تحته عهد حماية له طابع سياسي واقتصادي يطلق عليه عهد أمراء الزوايا،⁵ وكانت قبيلة آيت أعياش مع غيرها من القبائل المتحالفة تتمتع بموجب هذا العهد بحرية التنقل بقوافلها ومواشيها بين ديارها في سفوح جبال الأطلس وبين مضاربها في تخوم الصحراء، فتجاوز بين حياة البدو في انتجاعها المراعي في الأودية صيفاً وبين حياة الحضر في الإقامة بسفوح جبال الأطلس شتاءً، فشبه أفرادها على شدة أهل الجبال المتمرسين بأحوال البدو والحضر معاً.⁶

تلقى أبو سالم العياشي تعليمه الأول على يد والده، فحفظ القرآن وتعلم مبادئ العلوم الشرعية في مسقط رأسه بزواية آيت أعياش، وبعد أن استوفى ما فيها من علوم قصد الزاوية الناصرية التي تنضوي هي الأخرى تحت حكم الدلائيين، فسمع من علمائها لاستكمال ما بدأه عند والده، وجالس أهل الطريقة فيها للتأدب بطريق المتصوفة في التربية والسلوك، وكان شيخه ابن ناصر الدرعي من أبرز الذين جلس إليهم في هذه الفترة، ثم ختم هذه المرحلة التأسيسية في الطلب بالتحاقه بجامع القرويين بفاس حيث اتم عند علمائه ما كان قد بدأه قبل ذلك من علوم اللغة والفقه والأصول والحديث.⁷

وحين فرغ أبو سالم من حواضر العلم القريبة منه في بلاد المغرب الأقصى بدأت نفسه تتوق إلى مرحلة جديدة في الطلب تكون وجهتها أبعد، فيمم وجهه شطر بلاد المشرق، باعتبارها مهبط الوحي ومطلع العرفان، ومجمع علوم الرواية والدراية، ومقصد أهل العلم من كل مكان، فحفزه هذا الشغف بالتحصيل على حداثة سنه على تقحم مجاهيل الأسفار وركوب موج الأخطار.

وقد وصف بقلمه هذا التشوق الذي اشتعل في نفسه مبكراً للبلاد المشرقية، حين قال: "وكنيت في أول معاناتي للطلب وتشبهي بأذيال الأدب كلفاً بالرواية ومستروحاً إليها من أثقال الرواية، فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلاً، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلاً ولا أبرأ عليلاً، لأتّم اقتصروا من الكتب على ما اشتهر واستغنوا عما غاب بما ظهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار، وعوالي الإسناد

4 - المرجع السابق.

5 - ينظر أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، تحقيق نفيسة الذهبي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1996م، ص: 21.

6 - ينظر المرجع السابق: 24، ص: 103.

7 - ينظر العياشي، اتحاف الأخلاء، ص: 23.

وغرائب الأخبار، فلما من الله بالرحلة المشرقية أولاً وثانياً، ولعنان العزم نحو الرواية ثانياً، تتبع ذلك في مظانه وعند أربابه، ورميت والحمد لله بسهم مصيب مع أصحابه.⁸

2.2. خصائصه:

لشخصية العياشي مجموعة من الخصائص طبعت رحلته بلونها المميز، فالمسائل العلمية التي تناولها والآراء التي سجلها تكشف ميزه الفذة والتي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

1.2.2. موسوعيته المعرفية:

تُظهر المسائل العلمية المتنوعة التي أثرى بها العياشي كتاب رحلته مشاركته في فنون علمية مختلفة، فهو رجل موسوعي يغلب على تفكيره الاستطراد المعرفي، والذي يدفعه في كثير من فصول الكتاب إلى قطع تسلسل الأحداث لينقل القارئ تحت عنوان "الطيفة" أو "غريبة" إلى جو الفوائد العلمية والطرائف الأدبية.

ولم تكن هذه الفوائد التي نشرها مقصده ابتداءً ولكن اتساع ثقافته حث قلمه على تدوينها حثاً، فأحياناً يتكلم بلسان المؤرخ فيعطي موجزاً تعريفياً عن الأعلام والمدن، وأحياناً يناظر بعقل الفقيه المطلع على الخلاف المذهبي، وفي مواضع يتناول مسائل العقائد واختلاف الفرق الإسلامية، وفي أخرى يتوسع في مسائل اللغة من نحو وصرف ويظهر علو كعبه فيها، وحين يغلب عليه الشوق يستسلم للوجدانيات، وتتفجر قريحته بقصائد المحبة والشوق.

لا تكاد عين القارئ تخطئ هذه الموسوعية لكثرة ما يعترضها من مسائل متنوعة في الكتاب، من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر ما حصل له حين نزل مدينة "وركلا" وتوجه إليه علماءها بأسئلة متنوعة، فجمع في نص الجواب فوائد في الحديث وفي السير والتراجم وفي الأدب ثم ختم ذلك بأبيات توضح ما أراد بيانه وفي الوقت نفسه تلغز بمعاقبة لأولئك السائلين على عدم قيامهم بحق ضيافته مع حرصهم على الاستفادة من علمه في بيت شعر يظهر تمكنه من ناصيته.

وهذا نص السؤال مع جوابه قال: "وسألني -أحد علماء وركلا- عن قوله عليه السلام: بئس الميت أبو أمانة لليهود والمنافقين،⁹ فإنهم قالوا: لو كان محمد نبينا ما مات صاحبه، وظن متفقهة البلد أنه أبو

⁸ - العياشي، اقتفاء الأثر، ص: 100.

⁹ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1990) بيروت، رقم: 7495، ج: 4، ص: 238.

أمامة الباهلي، فكتبت لهم في معنى ذلك وبينت لهم أنه أبو أمامة أسعد بن زرارة، وأنّ أبا أمامة الباهلي إنّما توفي بعد أيام النبوة بأزمان كثيرة.¹⁰

ويقول فيه أيضاً: "وسألوا عن مسائل كثيرة منها ألغاز الحرير التي يقول فيها: ما مثل قولي لكم، وفككت لهم ما سألوا عنه منها، وجاء المساء فأنشدتهم بيتاً من ذلك المعنى: ما مثل قولة قائل يا سادتي *** ذهب النهار وذلك الضيافات.

فإنّ معنى الضيافات وذهاب النهار متحد، وهو بيت عجيب فيه دلالة على الحال التي نحن فيها من ضيق الوقت وقرب المغرب، وفيه إشارة على ما يجب عليهم من ضيافتنا.¹¹

فهذه المسألة الشرعية يظهر فيها سعة اطلاعه على علوم الحديث النبوي الشريف، فحديث أبي أمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنه الذي أشار إليه غير محرّج في الكتب الستة ومع ذلك عرفه العياشي وهو في حال السفر والكتاب المعين مفقود، ويظهر فيه أيضاً إلمامه بتراجم الصحابة رضي الله عنهم وتواريخ وفياتهم.

ويظهر أيضاً من خلال هذه المسألة تمرسه بعلوم اللغة ونصوص الأدب، ومقدرته على فك ألغاز الحريري وأحاجيه على ما فيها من تورية وإضمار، وهي نصوص ملغزة كان المؤدبون يستعملونها لامتحان الطلاب وشحذ قرائحهم، فلا يهتدي لفهمها إلا من كان له دراية واسعة بعلوم اللغة مع عقل فطن وقاد. ثم ختم هذه المحاورة العلمية مع سائله ببيت من الشعر مرتجل، جمع فيه بين التعليم والتأديب، فأبان عن براعة في قرض الشعر وتطوير القوافي والأوزان حتى صار يتفنن في الإلغاز والتورية نظاماً.

ومع هذا التوسع المعرفي الذي كان يطبع العياشي إلّا أنّ وقوع الوهم الزلل وارد عليه، ومنه ما وقع له حين خلط بين الإباضية والروافض، فاعتبر الإباضية فرقة من فرق الشيعة الروافض، ومن المعلوم لكل مطلع على الفرق الإسلامية أنّهم من فرق الخوارج لا من فرق الشيعة، وكذلك وهمه في "مزاب" فظن أنّه جبل وهو واد ممتد في الصحراء.¹²

2.2.2. بعده عن التعصب:

10 - أبو سالم العياشي، الرحلة، تحقيق سعيد الفاضلي، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006م، ج:1، ص:120.

11 - المرجع السابق، ص:121.

12 - عرف العياشي الإباضية وذكر مساكنهم بقوله: "أتباع عبد الله بن إباح يوافقون المعتزلة في أكثر عوائدهم، كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن، ويغضون بعض الصحابة، وهم كثيرون بتلك البلدة وأصل مادتهم من جبال مزاب فلنهم كلهم روافض وبها علماؤهم." الرحلة، ج:1، ص:116.

على خلاف ما كان سائداً في زمان العياشي من جمود على التقليد في الفقه المذهبي فإنّ العياشي كان منفتحاً على المذاهب الفقهية الأخرى تعليماً وتعلماً وأخذاً بالأقوال، خاصة المذهبين الشافعي والحنفي، فقد أخذ العلم عن عددٍ من أعلام هذين المذهبين في رحلاته إلى بلاد الحجاز.¹³

ويظهر هذا الانفتاح التعليمي في الإجازات العلمية التي أخذها عن غير شيوخ مذهبه، حيث صرح بالتلقي عنهم في مجالسهم العلمية التي حضرها، فلم يكن يقتصر في الأخذ على علماء المالكية فقط، بل كان يتعداهم إلى غيرهم من مشايخ المذاهب الأخرى من مختلف الأقطار الإسلامية.

وقد سجل هذه الإجازات التي أخذها عن علماء المذاهب حين ترجم لشييوخه في ثبته المسمى "اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر"، وذكرهم بعد تراجع والده وشيوخه في بلده، فذكر من الحنفية مثلاً الشيخ أحمد بن محمد الحفاجي أفندي الذي لقيه بمصر وأخذ عنه وفخم ذكره بقوله: "الشيخ الذي طبّق ذكره الآفاق وسارت بالثناء عليه الرفاق، ذو الجاه الاصيل والنجد الأثيل، شيخنا شهاب الدين أحمد بن محمد الحفاجي أفندي، إمام الحنفية بمصر بل وغير الحنفية وغير مصر ولا مدافع".¹⁴

ومن شيوخ الشافعية ذكر الشيخ أحمد بن أحمد القليوبي الذي يقول فيه: "شيخ الشافعية وقطب رحاهم ومن إليه مرجعهم ومنحاهم، شهاب الدين القليوبي، سمعت عليه بعض مسند بن حنبل، وأجاز لي سائر مروياته عن جميع مشايخه".¹⁵

هذا من حيث انفتاحه في التلقي والتعلم أمّا من حيث انفتاحه على الأقوال الفقهية فمثالها في آرائه التي مال فيها عن مشهور مذهب مالك مراعاة لرفع الحرج وعدم التضيق على الناس، وهذه صفة عزيزة في أهل ذلك الزمن الذي جمد أهله على أقول من سبق وتعصبوا لها.

من ذلك مسألة قطع نبات الحرم المدني لأجل بيعه، وهي مسألة فقهية عُرضت عليه في المدينة يقول فيها: "وضع البحث بين الطائفة المالكية ونحن بالمدينة عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخبز وغيره، فإنه يؤتى به ويبيع في الأسواق، فهل يحل للمالكي ومن لا يرى جواز ذلك شراؤه وأكله؟ فكنت أميل إلى الجواز إذا كان القاطع لذلك والبائع له ممن يرى جواز ذلك في مذهبه لأنّه فعل ما يسوغ له شرعاً، لأننا نقول بإصابة كل مجتهد، وإن كنا نرى غيره أصوب".¹⁶

13 - ينظر العياشي اقتفاء الأثر، ص: 102.

14 - المرجع السابق، ص: 126.

15 - نفسه، ص: 130.

16 - العياشي، الرحلة، ج: 1، ص: 403.

ثم بين منزعه في هذه الفتوى التي أسسها على التيسير ورفع الحرج بقوله: "ولو فتح باب الامتناع من الشراء منهم لأدى ذلك إلى فساد كبير وحرج في المعاملات بالامتناع عن ذبائهم والشراء منهم والبيع لهم لوقوع الخلاف بين الأئمة في فروع كثيرة من الذبائح والصيد وأبواب الربا فيمنع البعض ما يميزه غيره، فلو كنا لا نشترى إلا ممن يتقي الربا على مذهبنا ويشترط في الصيد والذبيحة واللقطة ما نشترطه لأدى ذلك إلى ضيق وحرج وتضليل بعض الأمة لبعض، وهو بعيد من نظر الشرع."¹⁷

ومن الأمثلة أيضاً نجد إشارات بحفظ ابن حزم الظاهري مع ما له من غرائب كما وصفه، فقال: "إن الحافظ أبا محمد بن حزم مقر في مجمع الغرائب على سعة اطلاعه ووفور علمه وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف، فقد ذكر بعض الأئمة أن أبا محمد بن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع مساقاً لا يمكن أن يسوقه حتى بعض من حضرها لكثرة ما جمع."¹⁸

3.2.2. حسه النقدي:

يمتاز العياشي بشخصية علمية مستقلة لا تقنع بمجرد المتابعة وتحكم حسها النقدي، فهو رجل يتبع مشاهداته بالنقد والتعقيب، سواء في ذلك عادات العوام أو أقوال العلماء أو تصرفات الحكام، وقد يخالف مشهور مذهبه لأنّ قناعته الفقهية تميل عن ذلك القول، فيجتهد في المسألة ويقول الرأي عندي كذا وينقد آراء غيره، وهذه صفة عزيزة في علماء القرن الحادي عشر الهجري الذي ارتفعت فيه دعاوى غلق باب الاجتهاد.¹⁹

ومن صور النقد والاعتراض التي سجلها صاحب الرحلة انكاره على بعض المتصوفة مع انتمائهم لحزبهم ما وقع فيه من ضلالات في الاعتقاد، فقد لاحظ أنّ بعض عقائد الشيعة الإسماعيلية قد تسلت

17 - نفسه.

18 - نفسه، 363.

19 - ذهب بعض علماء المذاهب الفقهية إلى أنّ باب الاجتهاد قد أغلق بعد أبي حنيفة وأصحابه وبعد مالك والشافعي، ومنهم من حد زمن غلقه بالقرن الثاني الهجري ومنهم من حده بالقرن الرابع الهجري، (ينظر ابن القيم، إعلام الموقعين، بيروت: دار الكتب العلمية، ج:2، ص:196).

وقد شاعت هذا المقالة رغم ردود علماء كثر عليها، كابن القيم (751هـ) في كتابه "إعلام الموقعين عن الله رب العالمين"، وكجلال الدين السيوطي (911هـ) في كتابه "الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض"، وكمحمد بن علي الشوكاني (1250هـ) في كتابه "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد"، وتوسع انتشار هذه الدعوى منذ القرن التاسع تقريباً بشكل أوسع منه في العصور المتقدمة، لعدة أسباب ذكرها أصحاب المصنفات السابقة خاصة السيوطي والشوكاني، لعل أهمها جمود الحضارة الإسلامية واكتفاء المسلمين المتأخرين بمنجز أسلافهم.

لفكر المتصوفة، كالقول بالغيبة وطول أعمار الأئمة، فيبالغون في سنوات عمرهم بأعداد هي أقرب إلى الخيال، فيجعلونها بمئات السنين، فمثلاً انتقد بعض المتصوفة الذين زعموا أنّ بعض أشياخهم قد تجاوز عمره سبع مئة عام، فقال مستغرباً هذه الدعوى: "والعجب كل العجب من متابعة بعض أهل التصوف في ذلك لهم - أي الشيعة الإسماعيلية-، حسب ما نقله سيدي عبد الوهاب الشعراني عن بعض مشايخه وأنّه اجتمع به وأخبره بمقدار عمره وأنّه جاوز السبع مئة سنة!"²⁰

ومن المواقف أيضاً التي تعقب فيها فقهاء زمانه ما حصل له مع أصحابه من المالكية في المدينة النبوية والذين لم تكن لهم نوبة في إمامة الحرم النبوي الشريف، إنّما كانت للحنفية والشافعية فقط، فلا يؤم بالمدينة سواهما، وتقام الصلاة في كل وقت مرتين، يصلي الشافعي أولاً إلا في صلاة المغرب فيقدم الحنفي لضيقها في مذهبه، وأحياناً يتقدم بعض فقهاء المالكية للصلاة نائباً عن الإمام الشافعي إذا تخلف لعذر ولم يجدوا من يخلفه من مذهبه فيقدم المالكي، لكنهم تنازعوا هل يصلي الإمام المالكي على مذهبه أو على مذهب الإمام الذي ناب عنه؟

وكان بعض مالكية المدينة يرون أنّ من ناب عن إمام الشافعية من المالكية لا يصلي على مذهب الشافعي وإنّما يصلي على مذهب مالك أو يدع الإمامة، وقد أنكر العياشي هذا القول ونصر الرأي الذي يقول بصلاة المالكي على مذهب الشافعي فيجهر بالبسملة ويقبض يديه ويراعي غالبية المأمونين من الشوافع، ولعل بعضهم يفتن إذا رأى هيئة الصلاة على غير ما عهد، وخرّج العياشي هذا الرأي على تحذير الشارع من الأمور التي توقع الخلاف بين الإمام والمأموم، فكان ترك بعض المستحبات والمندوبات أولى درءاً للفتنة بين المصلين، وموافقة المأموم للإمام وعدم كراهيته له أمر مرغوب فيه مكروه خلافه.²¹

ولم يكن العياشي ناقداً للفقهاء أو المتصوفة فقط، بل خصص مساحة واسعة في كتابه لنقد عوائد العوام وتصرفاتهم، فكان ينكر البدع والضلالات التي تلبسوا بها، ويعيب عليهم الأعمال المخالفة للشرع ولعوائد المعروف التي تواضع عليها أهل الفطرة السليمة.

وإن كان في بعض الأحيان يميل إلى التأويل وحسن الظن وفي أحيان كثيرة يستعمل أشد عبارة النكير، سواء في ذلك من رآهم في الحواضر التي دخلها أو من لقيهم في طريقه من الأعراب، وقد أكثر في

20 - العياشي، الرحلة، ج:1، ص:381.

21 - المرجع السابق، ص:442.

ذم عادتهم في قطع السبيل والتعرض للحجيج، وعابهم كثيراً لما رأى من بعدهم عن الشريعة، وتنكرهم لعوائد البدو الكرماء الأصلاء التي تحت على إكرام الضيف ومساعدة ابن السبيل.²²

لكن العياشي مع ما له من استقلالٍ علمي ونظري نقدي إلا أنه في مقام الأخذ عن شيوخ المتصوفة يكتفي بالمتابعة والتسليم، فنجدته يكثر في كتابه من أخبار خوارق المتصوفة ورؤاهم ومنامتهم، وإن كان له رأي مخالف في ذلك فهو يكتفي بالإشارة إليه دون الجهر به، فالقاعدة عنده أنّ ما نقل عن المشايخ مقدم والسلامة في التسليم، وهذا ما نص عليه صراحة حين قال: "فإنّ صح عن هؤلاء الأئمة-يقصد عبد الوهاب الشعراي- أنّهم قالوا ذلك-أي تطاول أعمار بعض المنسوبين إلى الولاية حتى تعد بمئات السنين- فنحن ممّن يعتقدهم ويجزم بصدقهم فيما يقولون لأنهم خيار الأمة، إلا أنا نكل العلم إلى الله تعالى في فهم ما ورد عنهم في ذلك."²³

ومن ذلك أيضاً ما نقله عن أحد شيوخ العلم بالقاهرة في سبب الوفاة بالأوبئة، فذكر قوله ورده من جهة النظر العقلي لكنه قبله من جهة التسليم والمتابعة، قال: "واستفدت منه أنّ الوباء أعاذنا الله منه يحدث في الجسم سمية منها يكون موت صاحبه، ولو برئ في ذلك الوقت فإنّ موته متى كان ولو بعد مئة سنة يكون بتلك السمية الباقية في البدن، وهذا عندي ممّا ينظر فيه، إنّ ورد عمّن يجب له التسليم له فيسلم، وإلاّ فإنّ الإنسان فدموت مقتولاً أو بشرب سم."²⁴

ومن أمثلة هذه المتابعة المطلقة والتسليم أيضاً ما ذكره عن عادة إحياء الموالد وما يقع فيها من المنكرات، وظاهر الشرع يوجب تركها لعدم ثبوتها بنص شرعي ولا شتمها على مخالفات ومفاسد دفعها أولى من إقامة تلك الموالد، لكنه عقب بعد ذلك بقصة من منامات المتصوفة تحت على شهود الموالد وحضورها، فذكر أنّ بعض الصوفية كان يتخلف عن الموالد لعدم موافقتها للشرع ولما فيها من منكرات فرأى في المنام ما نهاه عن التخلف وأوجب عليه الحضور، ثم أطال في نقل أخبار مماثلة للتأكيد على فضيلة حضور الموالد على ما فيها من مفاسد، وجعل مدار الحجة في ذلك على متابعة شيوخ التصوف والتسليم لرؤاهم.²⁵

22 - نقد العياشي للعوام وتصرفاتهم كثير في كتاب رحلته لكنه أكثر النكير على قاطعي السبيل الذين يؤذون الحجاج في أمنهم أو بخادعوتهم على أرزاقهم، ينظر على سبيل الذكر لا الحصر ما ذكره في رحلته ج:1، ص:317، 322.

23 - المرجع نفسه، ج:1، ص:381.

24 - المرجع السابق: ج:1، ص:229.

25 - ينظر المرجع السابق: ج:1، ص:398، 399.

3.2. رحلاته إلى البلد الحرام:

ذكر العياشي في مقدمة كتابه أنه ارتحل إلى بلاد الحجاز ثلاث مرات، الرحلة الأولى سنة (1059هـ) وكان حينها ما يزال شاباً طري العود في بدايات الطلب لم يخض بحر التجارب بعد ولم تكتمل شخصيته العلمية، فكانت رحلة أشواق واستكشاف إلى البلد الحرام، ولم يكن فيها حسب تعبيره كبير أمر يُعنى بتدوينه، فما عرفه في هذه الرحلة من أوصاف المسالك وتعداد المراحل وأسماء البلدان يشترك في معرفته عام الحجاج وخاصهم، وأما ما اختص به من مجالس العلماء ومحاضرة الأدباء ولقاء الفضلاء في هذه الرحلة فهو عنده أقل من أن يذكر.²⁶

أما الثانية فكانت بعد خمس سنوات من رحلته الأولى أي عام (1064هـ) وهي رحلة دعاه إليها حينه للبلد الحرام ابتداءً لكنه جعلها رحلة إجازة واستزادة انتهاءً، فأعد لجمع فوائدها عدداً كثيرة، وخصها بكثرة مجالسة العلماء ومحاوره الظرفاء ووسع المجال فيها بلقاء الرجال، فاجتمعت له فوائد علمية حصلها من تلك المجالس النافعة، كتراجم الشيوخ الذين لقيهم ومروياتهم وإجازاتهم، ولتحصيل الإفادة لمن طلب الاستفادة من تلك الرحلة جمع ما حصله في كتابه "اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر".²⁷

وأما الرحلة الثالثة التي خصها بكتابه المرجع في هذه الدراسة فقد عزم عليها منذ رجوعه من رحلته الثانية وجعل موعدها بعد خمس سنوات منها أي سنة (1069هـ) لكن ظروف المغرب الأقصى السياسية والاجتماعية حالت دون ذلك، فقد شهدت البلاد في تلك الفترة حالة من الهرج والمرج وعدم الأمن والاستقرار، وتأخرت رحلته بسبب ذلك إلى سنة (1072هـ)، فتوجه من سجلماسة ببلاد المغرب قاصداً بلاد الحجاز في رحلته الثالثة والأخيرة وهي التي قيد مشاهدتها وسجل مجالسها ومحاضراتها بعد رجوعه منها في كتابه الذي اعتمدنا عليه في هذا العمل، والذي يعرف بالرحلة الكبرى ويحمل أيضاً عنوان "ماء الموائد".²⁸

هذا عن عدد رحلات العياشي إلى الحجاز، أما عن مسارها فهي رحلة شقت صحراء الشمال الإفريقي المتراامية، وسارت في عمق العالم الإسلامي الغربي، ثم مرت بمصر فتوقفت في عاصمتها القاهرة إلى أن تجمع حبيج مصر ثم قصدت بلاد الحجاز.

²⁶ - ينظر المرجع نفسه، ص: 52، 53.

²⁷ - ينظر المرجع نفسه.

²⁸ - ينظر عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات، الرياض: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2005 م، ج: 1، ص: 200.

لقد مرت هذه الرحلة في ذهابها وإيابها بعدة حواضر متناثرة على طريق القوافل السابلة، والتي كانت تقع ضمن فضاءات مفتوحة تحكمها التحالفات والولاءات، ولها نظامها الخاص ذي طابع محلي يسهر على أمنها واستقرارها، ابتداءً بسجلماسة في المملكة المغربية اليوم، مروراً بتوات ووركلا وواد سوف من بلاد الجزائر، ثم مدينة طرابلس في دولة ليبيا، وصولاً إلى القاهرة ثم بلاد الحجاز.²⁹

أمّا زمن الرحلة فقد كان في القرن الحادي عشر للهجرة والسابع عشر للميلاد، وهذه فترة زمنية فارقة في تاريخ الأمة، إذ لا يفصلها عن سقوطها المدوي في برائن الاستعمار غير قرن ونصف من الزمان، وكانت حينها تعيش بطالة حضارية عامة، والتي وصفها المفكر مالك بن نبي بأنها فترة تميل فيها الأمة إلى الكسل المعرفي ويغلب عليها حب الاستئناس ببطولات الماضي، ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها، أمّا حاضرها فتقتات فيه على أفكار ميتة، وتستتر واقعها بظلال تصورات خاطئة عن العالم من حولها، فكانت حينها أشبه بالمرضى الذي يهجر الدواء ويسلم نفسه طواعية لأمراضه المستعصية.³⁰

إنّ أهم ما في رحلة "ماء الموائد" بالنسبة لهذه الورقة هو ذلك الرصد الميداني للأفكار التي سادت العالم العربي وأخذت حظاً وافراً من اهتمام صاحب الرحلة، والذي سأحاول تتبع مهماتها من خلال مناقشة عينات من السؤالات والمسائل التي عرضت لصاحب الرحلة.

3. مسائل العياشي في رحلته.

لا يمكن لهذا البحث معدود الأوراق أن يتناول جميع المسائل الشرعية أو الفقهية التي ذكرها العياشي في كتاب الرحلة، فهي متنوعة ومتعددة الجوانب، منها ما ذكره إجمالاً ومنها ما وقف عنده تفصيلاً، ومنها ما أشار إليه تصريحاً أو تلميحاً، ولكن سأسعى لبيان نماذج من الاهتمامات الغيبية ذات الطابع الشرعي، بذكر المسألة مع بيان نوعها ثم بيان أصلها الشرعي الذي بنيت عليه والباعث على التعرض لها، ثم بيان أثرها على الأفكار العامة التي كانت سائدة في ذلك الزمن.

فالاهتمامات المشتركة للمسلمين عبر تاريخهم الطويل ما هي إلا إسقاط لوعي الأمة بواقعها وتنزيل لتصوراتها عن نفسها وغيرها، فلما كانت الأمة في أوج عطائها غلب على نقاشها الفقهي قضايا فقه التمكين وبناء مؤسسات الدولة كفقه الخراج وفقه بيت المال والفقه القضائي وأحكام الإمامة والسياسة الشرعية وغيرها من مسائل تعنى بالتصور الشرعي لبناء الدولة.

²⁹ - ينظر الرحلة، ج:1، ص:39.

³⁰ - ينظر مالك بن نبي، شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، 1986م، صفحات: 19، 40، 47.

وحين تقلص نفوذ الأمة التاريخي، وخرجت من ساحة صناعة الأحداث الإنسانية، أصبحت أكثر اهتماماتها ذات تطلع غيبي فرداني، وظهر فيها الميل إلى الجدل حول الأوراد وطرق تلقيها، وكيفية خدمة مشايخها، ودلالات الرؤى والمنامات وكيفية الكشف عن المغيبات باستعمال أسرار الحروف والأسماء، في جملة من الاهتمامات التي تعكس التصورات العامة التي حكمت المسلمين في أزمنة الانحطاط.

فالمسائل والقضايا ذات الاهتمام المشترك من أهم المظاهر الدالة على تصورات الناس لزمانهم الذي يعيشون فيه، فكلما كانت المسائل المطروحة على العلماء والمفتين مستجدة وواقعية كلما دل ذلك على مواكبة التصورات العامة لدى الناس لزمانهم الذي يعيشون فيه، وكلما كانت المسائل المطروحة منفصلة عن الأحداث الحقيقية لزمانهم وموغة في الماضي وعالقة في شبك خلافاته كلما دل ذلك على حالة موات حضاري وجمود معرفي وبعد عن الواقع.

وبالنظر إلى القضايا والمسائل الشرعية التي تعرض لها العياشي في رحلته أو عرضت عليه نجدها في جملتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، منها قضايا تتعلق بالغيبيات والوجدانيات وهي أكثرها، ومنها قضايا تتعلق بالبيع والنكاح، ومنها قضايا تتعلق بسياسة الحكام اتجاه الرعية، وهي قضايا تدل في ثنائها على نوعية الاهتمامات التي كانت سائدة زمن رحلة، وتمكن دراستها من سبر مستوى الوعي لدى مجتمعات ذلك الزمن ومعرفة نوعية أفكاره الموجهة.

ولعل أبرز ما يلمسه قارئ الرحلة هو تلك المسائل المتعلقة بالمستقبل المغيب والوجدانيات، وهي مسائل تعكس البعد الغيبي في الفكر الصوفي، والذي يغلب عليه التسليم للواقع دون استشراف له أو توقع لأحداثه المستقبلية، ولا ينفك هذه الفكر المشدود لعوالم الغيب عن التأرجح بين ثنائية الظاهر والباطن محاولاً فهم زمانه من خلالها.

وتكشف الرحلة أيضاً عن تلك الروابط الخفية والمتينة بين الشيخ والمريد، التي تحاط بهالة من الأوراد السرية، ولم يكن العياشي في هذا الأمر شاذاً عن أهل زمانه، بل كانت هذه هي السمة الغالبة في تلك القرون، يستوي في أمرها الخواص والعوام، فهناك تعلق وجداني عاطفي شديد بالمغيبات، وتوسيع لحضورها في حياة الناس، وارتكاز على تأويلاتها في التشوفات المستقبلية والتأملات الغيبية.

سأحاول في هذا العنصر بيان نماذج من هذه المسائل التي أكثر العياشي من ذكرها والإشارة إليها، و أعطاهما جل اهتمامه وهي ثلاث مسائل بحسب الاستقراء، الأوراد الحزبية وأمر النبي p وفي الأخير مسألة السيميا وعلم حساب الحروف.

1.3. مسألة الأوراد الحافظة والأذكار الحرزية:

ترجم العياشي علاقته الوجدانية بالمغيبات بحرصه الشديد على الإكثار من الأوراد الحافظة كما يسميها، والتي حرص على تلقيها من بعض شيوخ الصوفية في طريقه، وكان يغتبط بها كثيراً لما يعتقد من فائدتها المرجوة في سفرته، وهي أوراد يرددها المسافر ليأمن في طريقه وتكون له حرزاً وحفيظة من المخاوف.

وحين تناول هذه المسألة استفتح لها ببيان عقيدته في الضر والنفع واجابة الدعاء، فصرح أنه لا نافع ولا ضار ولا مجيب للدعاء إلا الله، فقال: "ينبغي للمؤمن إذا نابه أمر أن يلجأ أولاً إلى الله تعالى في دفعه مخلصاً في ذلك، فلا يشوبه نظر إلى حوله وقوته وحيلته وتدبيره فضلاً عن حول غيره." ³¹

ويسمي العياشي هذه الأذكار: حفيظة، ولفظها يغني عن شرح دلالتها، ومن أمثلتها في نص الرحلة الذكر الذي تلقاه عن بعض شيوخ المتصوفة أول خروجه من دياره، وهو ذكر يردده الخائف في الطريق حتى يأمن، وهذه صيغته: "آية الكرسي ثلاث عشرة مرة إلى قوله تعالى (العظيم)، وسبع عشرة إلى (خالدون)." ³²

وذكر أيضاً ورداً حرزياً آخر عن أحد شيوخه فقال: "استفدت من مولانا المذكور حفيظة تستعمل في محل الخوف وهي سورة (يس) خمسين مرة، قال: ما قرئت في أمر مهم إلا حصل." ³³

وظاهر من كلام العياشي أنّ هذه الأوراد عمدتها على التلقي المباشر من شيوخ المتصوفة، ولا تتم الفائدة المرجوة منها شرعية كانت أو دنيوية إلا إذا كانت مجازة من عند شيخ طريقة معتمد، والمخول حصراً بمنح أورادها، وهو الذي يعلم أسرار تراكيبها ويملك سنده للإجازة بها، فهي أذكار مخصصة بإجازة مخصصة لمريد مخصوص، ولذلك كان تلقيها دائماً يتم بواسطة الشيخ أو نائبه، ويعتبرها المتلقي أو المريد من أجل النعم الواصلة إليه من شيخه والتي تستحق الشكر الكثير والتقدير العالي.

ويظهر أيضاً من كلامه أنّ من الأمور المخصصة لهذه الأوراد صيغتها، والذي غالباً ما يكون بعدد معين وبصورة مخصصة على المريد أن يراعيها أشد المراعاة، فمثلاً الحفيظة سابقة الذكر التي تلقاها العياشي فيها تركيب حسابي متداخل يوجب عليه أن يكون حاضر العقل والقلب حتى لا يخطئ في حسابه، فهو

31 - الرحلة، ج:1، ص:69.

32 - المرجع نفسه، ص:71.

33 - المرجع نفسه، ص:72.

يقرأ آية الكرسي إلى ختامها ثلاث عشرة مرة، ثم يقرأها مع الآيتين بعدها سبع عشرة مرة، وكذلك في الحفيظة الثانية بالنسبة لسورة (يس) فيقرأها خمسين مرة.

والأمر الأخير الذي أظهر العياشي عند كلامه عن الأوراد أنّها أوراد مخصوصة في مقصدها، فلا تكون دائماً مطلقة القصد الغرض منها تحصيل الأجر فقط، بل قد يكون لها غرض أساسي زائد على الأجر وإن كان هذا الأخير مقصد من مقاصدها أيضاً، فقد تكون أوراداً للحفظ والحماية في الطريق والاحتراز من كل ما يخيف مثل الورد الأول، وكذلك هي أذكار لتحصيل المطلوب وجلب المرغوب كما هو شأن الورد الثاني.

ومبنى الخلاف في هذه المسألة ليس في مشروعية أصل الذكر، فهذه مسألة لا خلاف فيها، ولكن في صيغ الأذكار هل هي توقيفية أي لا يذكر المسلم ربه إلا بالصيغ التي ثبتت بالكتاب والسنة أو هي مسألة توقيفية اجتهادية للمسلم أن يجتهد في صيغ الذكر بما شاء من ألفاظ وتراكيب، شريطة أن يكون أصلها مشروعاً؟

أ- الفريق الأول وهم القائلون بعدم جواز الذكر بغير المأثور يرون أنّ صيغ الأذكار توقيفية ولا دخل للاجتهاد فيها، فلا يكون الذكر إلا بما نص عليه الشرع بلفظه ومعناه، وحجة أصحاب هذا القول بينها ابن حجر في الفتح وعزاها للمازري، قال: "إنّ ألفاظ الأذكار توقيفية ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس فيجب المحافظة على اللفظ الذي وردت به، وهذا اختيار الإمام المازري حيث نصره قال: فيقتصر فيه على اللفظ الوارد بحروفه، وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف، ولعله أوحى إليه بهذه الكلمات فيتعين أداؤها بحروفها." ³⁴

ودليلهم حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في كيفية دعاء النوم عن النبي ﷺ قال: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر

³⁴ - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة 1379هـ، ج: 11، ص: 112.

ما تتكلم به، قال: فرددتها على النبي p فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك، قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت». ³⁵

ب-الفريق الثاني ذهب إلى عدم التقييد في الأذكار بالمأثور فقط، شريطة أن تكون بالصيغ المشروعة في أصلها، كمطلق قراءة القرآن والصلاة على النبي p، ومثل ذلك التسبيح والتكبير والحمدلة والحوقة وغيرها من الصيغ المشروعة بأصلها، ودليلهم في جواز التوسع في الأذكار مطلق الأمر بالذكر مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41].

وكرهوا الزيادة على الأذكار المحددة بالنص، كالتسبيح ثلاثاً وثلاثين عقيب الصلوات، فلا يزداد على هذا العدد، لأن الزيادة عليه تعد على ما حده الشارع، وقد بين القراني في فروقه الزيادة في الذكر وخص بالكراهة منها ما كان محدوداً بنص الشارع دون غيره، قال: "ومن هذا الباب -أي البدع المكروهة- الزيادة في المندوبات المحدودات كما ورد في التسبيح عقيب الصلوات ثلاثة وثلاثين فيفعل مائة وورد صاع في زكاة الفطر فيجعل عشرة أصعب بسبب أن الزيادة فيها إظهار الاستظهار على الشارع، وقلة أدب معه بل شأن العظماء إذا حددوا شيئاً وقف عنده، والخروج عنه قلة أدب." ³⁶

فأصل التوسع ليس مكروهاً إلا أن يكون فيه زيادة على ما حدده الشارع، وقد ذكر هذه المسألة أيضاً ابن عابدين الحنفي حين تكلم عن الزيادة على العدد الوارد في التسبيح عقيب الصلوات فقال: "لو زاد على العدد، قيل يكره لأنه سوء أدب، وأيد بأنه كدواء زيد على قانونه أو مفتاح زيد على أسنانه، وقيل لا بل يحصل له الثواب المخصوص مع الزيادة، بل قيل لا يحل اعتقاد الكراهة، لقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: 160]." ³⁷

لم يتعرض العياشي لهذه المسألة باعتبارها من القضايا التي ينظر فيها من حيث جوازها الشرعي، وإنما ذكرها باعتبارها ممارسة شائعة يلجأ إليها أهل ذلك الزمن قصد تحصيل منافع مرجوة من بعض الأوراد، وهذا أمر بالنسبة للعياشي محل قبول وتسليم، وقد ذكرها في رحلته إماماً ضمن ما كان سائداً في بيئته من روابط وصلات وجدانية بين المتصوفة تركز في علاقتها على تلقي الأوراد من الأشياخ، وإماماً لبيان

³⁵ - محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى (1422هـ)، رقم: 247، ج: 1، ص: 58.

³⁶ - أحمد بن إدريس القراني، الفروق، الناشر عالم الكتب، بدون طبعة وبدون تاريخ، ج: 4، ص: 204.

³⁷ - ابن عابدين، رد المختار، ج: 1، ص: 531.

ما كان محتاط به الحجاج في رحلتهم خوفاً من قطاع الطريق وشدائد السفر، فزمان العياشي كان زمن خوف يشهد الكثير من صور الانفلات الأمني، بسبب ضعف الأنظمة المركزية أو غيابها وبسبب ظروف المجاعات والأوبئة، فكان الخوف ملازماً لقوافل الحج بسبب كثرة قطاع الطرق والسراق الذين يتربصون بالحجيج على طول رحلتهم، وكثيراً ما ذكر العياشي خوفه مع رفقته من هجماتهم ليلاً أو نهاراً، وهو خوف لازمه منذ أن خرج من بلاده وحتى أدائه مناسك الحج، فلم يأمن كغيره من الحجيج من اعتداء السراق عليهم ليلة المبيت بمزدلفة، فباتوا يدافعونهم عن متاعهم إلى الصباح.³⁸

لأجل هذا الخوف كانت قوافل الحجيج تطلب الحماية في طريقها من أمراء البلاد التي تمر بها، وتتسلح بالبنادق والمدافع لحماية نفسها، وأحياناً تدفع مكوساً وإتاوات لشيخ البدو حتى يكفوا عنها ولا يتعرضوا لها في طريقها.³⁹

لقد دفعت ظروف الطريق غير الآمنة أهل ذلك الزمن لاتخاذ أسباب سلامة متنوعة، وهي ظروف مخوفة كثيرة منها ما له علاقة بعادات البشر ومنها ما له علاقة بظروف الرحلات القاسية ومنها أيضاً ما له علاقة بالأوبئة التي تفتك بالناس، فزيادة على الأسباب المادية المعهودة سعى أهل ذلك الزمن لتحقيق السلامة والأمان باستعمال الأوراد الحزبية والأذكار الحفظية، والتي كان لها سلطانها القوي في ذلك الزمان ساعداً في ذلك العلاقات الوجدانية بالمغيبات الذي غرسته الثقافة الصوفية السائدة.

2.3. مسألة أمر النبي p في النوم:

من المسائل التي ذكرها العياشي في رحلته وناقشها أمر النبي p لبعض الناس في النوم، وسبب تعرضه لهذه المسألة أن أحد الشيوخ المرفقين له في الرحلة واسمه إبراهيم السوسي أرسل إليه يسأله عن جملة مسائل منها أمر النبي p لمن رآه في النوم هل يلزمه ذلك الأمر أو لا يلزمه؟ وقد أجاب السائل بنظم قال فيه:

ومنه لزوم الفعل إن كان آمراً *** به المصطفى في النوم أو قال بالكف.

فإن كان ما قد قال وافق شرعه *** فذلك أحرى بالزوم بلا خلف.

وإن خالف المنصوص فهو مؤول *** وتأويله بالعلم يُدرى وبالكشف.⁴⁰

38 - ينظر الرحلة، ج: 1، ص: 320.

39 - ينظر المرجع نفسه، ص: 198، 202.

40 - المرجع نفسه، ص: 86.

ثم بعث بهذه الأبيات إلى أحد الفقهاء القضاة وكان معه في الركب واسمه احمد الخطيب المراكشي للاطلاع عليها فأجابه بما نصه: "ومسألة أمره ρ مناماً لا جائز أن يكون زائداً على مضمون الأوامر الشرعية لكمالها، ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [المائدة:3]، ولا يخالف لها، إذ لا يقع ذلك منه ρ، وإن كان موافقاً بالزوم من غيره وإلا لزم تحصيل حاصل." 41

ولم يقنع العياشي كثيراً بهذا الجواب، واعتبره كلاماً من لم يحيط بالمسألة خيراً على حد وصفه، وعزم على الرد على الفقيه أحمد الخطيب برسالة حول هذه المسألة عزم على تأليفها في سفره لكنه عدل عن ذلك لقلة الكتاب المعينة، لكنه مع ذلك اختار لها عنواناً وهو "تحرير كلام القوم في أمر النبي ρ في النوم". 42

ولا خلاف بين علماء المسلمين في إمكان رؤية النبي ρ مناماً، بل هي من المبشرات للحديث المروي في الصحيحين الذي يقول فيه ρ: "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي". 43

واشترط بعض العلماء لصحة الرؤيا أن يراه في صورته التي نقل أوصافها أهل السير، فإذا رأى مثلاً رجلاً شديد الطول أو شديد القصر أو بدينياً جداً أو نحيفاً جداً وقال له أنا رسول الله فلا تعتبر هذه رؤيا صحيحة للنبي ρ، وقال بعضهم بل يجوز جواز أن يرى في المنام على خلاف صفته المعروفة، وحملوا معنى قوله: رآني حقاً، على أنّ المقصود به أنّ رؤياه صحيحة وليست أضغاث أحلام ولا من تشبيهات الشيطان. 44

والمسألة التي طرحت على العياشي ليس في نفس الرؤيا ولكن في أوامره أو نواهيه ρ لصاحب الرؤيا، وهذه الأوامر لها ثلاث حالة إما أن تكون موافقة للشرع أو مخالفة له أو زائدة على ما فيه من أوامر. فالحالة الأولى وهي الأوامر الموافقة لما في الشرع، فينظر إليها على أنّها زيادة تأكيد لها في حق الرائي كما إذا أمره بالصلاة أو الصدقة، وأمّا الأوامر المخالفة لأحكام الشرع فهذا ما يسميه العلماء النسخ،

41 - المرجع نفسه، ص: 87.

42 - المرجع نفسه.

43 - البخاري، رقم: 6993، ج: 9، ص: 33.

44 - ينظر يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392هـ، ج: 15، ص: 24.

والنسخ لا يكون إلا بوحى وفي حياة النبي p فلا نسخ بعد موته، فلا عبرة بهذه الأوامر ووجودها دليل على عدم صحة الرؤيا، لأنه p لا يأمر بما يخالف الشرع.

وهذا الجزء محل اتفاق بين العياشي والفقيه أحمد الخطيب، ولكن اختلفوا في الأوامر الزائدة مما شرع جنسها، كأن يأمر النبي صاحب الرؤيا بتزديد ورد معين والمحافظة عليه مثلاً، فقد كان جواب أحمد الخطيب واضحاً فاعتبر ذلك من الزيادة على الشرع واستدل على بطلانه بآية المائدة كما مرّ معنا في نص جوابه.

أمّا العياشي فاعتبر أن هذا النوع من الأوامر جائز ولكن يؤول في حق الرائي، فإن كان ممّا شرع بأصله فهو أمر في حق صاحب الرؤيا بزيادة أمر مشروع، وإن كان في الأمر نهي عن مباح مثلاً فينظر في تأويل ذلك المباح في حقه.

وهذا نص كلامه في الرد على الفقيه أحمد الخطيب قال: "فالدليل (اليوم أكملت لكم دينكم) إنّما قام على أنّه لم يبق شيء من مقاصد الشرع غير مذكور في الكتاب والسنة، وذلك إنّما يقتضي أنّه لا يثبت حكم زائد بما يأمر به في النوم لأنّ الدين قد كمل، لا على أنّ النائم لا يرى أنّ النبي p أمره بشيء زائد على المشروع، فإن ادعى ذلك من يوثق به ولم تظهر تهمته سيما إن رآه على صفته، صدق في أنّه رأى ذلك وأنّ رؤياه حق للحديث الصحيح، فاحتيج للتأويل".⁴⁵

3.3. مسألة السيميا وعلم الحروف:

من المسائل التي كانت شائعة زمن العياشي مسألة التطلع للغيب باستعمال التنجيم وعلم السيميا، والسعي لكشف المستقبلات باستعمال أسرار الحروف وحساب الجمل، وقد بلغ سلطان هذا الأمر في ذلك الزمن حتى أنّ بعض الحكام كانوا يعتقدون به، وقد ذكر العياشي خبر استعانة باشا القاهرة في زمانه بأقوال المنجمين لتحديد يوم عيد الفطر قبل موعد تحري الهلال شرعاً، في قصة غريبة قال فيها: "تظافرت أقوال المنجمين والمعدلين بالقاهرة في تلك الأيام بأنّ الهلال يُرى ليلة ثلاثين، فيكون الشهر تسعاً وعشرين،... وأنتشر ذلك في الناس واعتقدوه حتى قيل أنّ الباشا طلب من قاضي العسكر الحنفي أن يحكم بذلك فأبى جزاه الله خيراً، وقال: لا أحكم حتى يرى الهلال، فلما كان المغرب طلع قاضي الشافعية وهو المعد

لذلك، فارتقبوا حتى انتشر الظلام، فلم يروى شيئاً... فعلم الناس أنّ الغد رمضان، وكذب الله المنجمين المتخرصين على الغيب، ﴿والله يحكم لا معقب لحكم وهو سريع الحساب﴾ [الرعد: 41].⁴⁶

لقد تعقب العياشي هذه القصة ببيان بطلان التنجيم وكذب المنجمين، لكنه في موضع آخر أورد خبراً مماثلاً عن تكهن المنجمين بحالة الطقس في مصر وبلاد الحجاز لسنة كاملة وأنها ستكون سنة معتدلة الحرارة، وذكرها العياشي مستأنساً بما دون تكذيب أو تصديق لما قالوه.⁴⁷

لم تكن مسألة التنجيم فقط هي السائدة في ذلك الزمن بل كانت هناك مسألة أخرى شاع استعمالها حتى من بعض الفقهاء وهي ما يسمى بعلم الأوفاق وأسرار الأسماء، وقد تعرض له العياشي في عدة مواضع في رحلته، وذكر المشتغلين به والساعين من خلاله إلى كشف المغيبات وجلب المرغوبات.

من أمثلة ذلك ما أورده حين عدد فضائل أحد كبار المالكية الذين اتصل بهم القاهرة واسمه الشيخ موسى القليبي، وذكر أنّه من أجل تلامذة أبي الحسن الأجهوري شيخ المالكية في زمانه، قال في ترجمته: "له خبرة تامة بفروع المذهب، وأطلعني على مؤلف له في الشمائل والسير لا بأس به، وانفرد بالاختصاص بالكشف عن علم الأوفاق وأسرار الحروف بحيث لا يشارك في ذلك".⁴⁸

بل إن العياشي نفسه ذكر ممارسته لهذا الأمر حين طلب منه أحد شيوخه من النقشبندية بإلحاح أن يرقيه ممّا يعتقد أنّه أثر سحر حل به، لشيوع الأمر عنده أنّ المغاربة ممّن يختصون بمسائل الأوفاق وأسرار الأسماء، قال: "وسألني عما يرقى به ذلك ويبطل عمل السحرة، لاعتقاد أهل تلك البلاد أنّ للمغاربة في فن الدعوات وأسرار الأسماء والترقي يد طولى ليست لغيرهم، وأتعلل له بعدم المعرفة لشيء من ذلك، فيظن ذلك من كتمان الأسرار وإخفائها على الأغيار، فكتبت له شيئاً ممّا أراه نافعاً لذلك".⁴⁹

وذكر كذلك قصة أخرى لأحد المشايخ الساكنين في سطح جامع الأزهر كان له دراية بالسيما وسماها علماً، وله فيها نية صالحة حسب وصفه، ولعله قصد أنّه لا يستعملها في وجوه الشر حسب ظنه، ثم ذكر قصة غريبة مفادها أنّ هذا الشيخ له أحوالٌ مع بعض من يمارس السيميا واستحضار الجان،

46 - المرجع السابق، ص: 233.

47 - المرجع نفسه، ص: 286.

48 - المرجع نفسه، ص: 243.

49 - المرجع نفسه، ص: 635.

والملاحظ أن العياشي لم ينكر أصل القصة على غرابتها، ولكنه أنكر توظيف السيميا لأجل أمور دنيوية!⁵⁰

حتى نتعرف على هذه المسألة لا بد من معرفة ما معنى السيميا وما معنى أوفاق الحروف وأسرارها؟ قال صاحب كشف اصطلاحات الفنون: "سيميا لفظ يطلق على غير الحقيقي من السحر وهو الأشهر، وحاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحسّ، وقد يطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحسّ وتكون صوراً في جوهر الهواء، وسبب سرعة زوالها، سرعة تغيّر جوهر الهواء؛ ولفظة سيميا عبراني معرّب أصله سيم يه، ومعناه اسم الله."⁵¹

وذكر القراني في كتابه الفروق أنّ السيمياء نوع من أنواع السحر، قال: "السحر اسم جنس لثلاثة أنواع، النوع الأول: السيمياء وهو عبارة عما يركب من خواص أرضية كدهن خاص أو مائعات خاصة أو كلمات خاصة توجب تخيلات خاصة..."⁵²

وقال ابن خلدون: "علم أسرار الحروف وهو المسمى لهذا العهد بالسمياء، نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة، فاستعمل استعمال العام في الخاص، وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم."⁵³

فهو يرى أنّ السيمياء ممّا يستعمله غلاة المتصوفة ويقصدون بها علم أسرار الحروف والأسماء دون باقي الطلاسم، من باب إطلاق العام على الخاص، ثم بيّن أن هذا العلم مبناه معرفة طبائع الحروف وأسرارها السارية في الأسماء ثم في نظام الأكوان وهو من تفاريع علم السيمياء، لا يُوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله، وحاصله عند من يعتقد به هو تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان.⁵⁴

50 - ينظر المرجع نفسه، ص: 257، 258.

51 - محمد بن علي التهانوي، موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م، ج: 1، ص: 57.

52 - القراني، الفروق، ج: 4، ص: 137.

53 - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، البليدة: دار الإمام مالك 2022م، ص: 545.

54 - المرجع نفسه.

والظاهر ممّا سبق أنّ السيميا يتطابق مع علم أسرار الحروف والأسماء في اصطلاحات المتصوفة، ولا يرون أنّه نوع من أنواع السحر، بل يعتقدون أنّه علم خاصة الخاصة لتعلقه بأسرار أسماء بعينها، فلا يطلع عليه إلا من كان عندهم أهلاً لاستعماله، وهذا يفسر سبب تحويطيه بالسرية والتكتم في أدبياتهم، فهو عندهم من الأمور التي يُضن بها عن غير أهلها وتكتم عن طالبها، كما أخبر العياشي في قصته مع شيخه النقشبندي.

ويُظهر هذا الاهتمام بالسيما وأسرار الحروف الشغف الشائع زمن العياشي بكشف الغيوب والمواريثات، ومدى انتشار فكرة تسخير أخبار المستقبل لأجل حل مشكلات الحاضر، وهذه النوع من الفكر يركز دائماً على رؤيا ما ورائية تسعى للتحكم في الأمور العادية بطرق غير عادية، وهذه السمة الغالبة تكشف ميول الناس حينها إلى تفسيرات غيبية للظواهر المشاهدة العينية.

وتظهر واقعة تحديد يوم عيد الفطر بواسطة التنجيم التي حكاها العياشي هذه السمة الغالبة، فانتشار خبر المنجمين وتصديقه من غالبية السكان في القاهرة وطلب اعتماده من قبل السلطة الحاكمة كل هذا يدل على تحكم هذه السلطة الغيبية في ذلك الوقت، مع افتقارها لأدنى مستند شرعي، فإذا كان للمنجمين حضور في تحديد المناسبات الشرعية فكيف كان حضورهم في غير ذلك من المناسبات والقضايا؟

وعلى خلاف عادته في التقصي والاستطراد فإن العياشي لم يظهر حماساً كبيراً للتوسع في مسألة أسرار الحروف والسيما، فقد كان حديثه مقتضباً عند الإشارة إليها، ولم يطل فيها الكلام والنقاش كعادته في تناول المسائل، وقد أشار إليها مواضع متعددة ولكن لم يتعد إيراد الخبر في سياق غامض يفتقر إلى التفصيل ويعتمد الإقرار والتسليم.

وإن كان العياشي قد تعلل بقلة معرفة علم الحروف كما قال لشيخه النقشبندي إلا أنّ هذا العذر ليس كافياً ليمنعه من ممارسة انتقاداته التي طبع بها كتاب رحلته، ولعل تركه لعلم الأسرار مع ما عرف عنه من جراءة في النقد والأنكار راجع إلى سلطان تلك الممارسة والتي غلبت على تفكير الخاصة وسلوك العامة، فترك الخوض فيها على أسلوبه المعتاد هو محاولة منه لتفادي الصدام مع ذلك السلطان الغالب، إذ كيف لحاسته النقدية أن تغيب في هذه المسألة وهي والتي كانت حاضرة لقوة في مسائل شرعية كثيرة أظهر فيها نقداً حاداً لبعض مخالفيه وصل إلى حد وصفهم بالغباوة والجهل.⁵⁵

55 - ينظر الرحلة، ج: 2، ص: 321.

هذه أهم المسائل التي تناولها العياشي في رحلته، وهناك غيرها ذكرها العياشي على حسب تعرضه لها في الرحلة، منها ما ذكرها في سياق النقد لمنظومة الحكم حينها كقضية المكوس والضرائب التي تأخذ من الحجاج وقضية دفع الرشاوى لتبوء المناصب الشرعية من إمامة وخطابة وقضاء، ومنها ما ذكرها في سياق الكشف عن العادات الاجتماعية التي انتشرت بين الناس في عصره كشرب القهوة وتعاطي الدخان.⁵⁶ وهذه مسائل دائرة في كلام أهل العلم معتادة في أصلها، وهي وإن كانت جديدة بالدراسة إلا أنها مسائل تُكلم فيها بما هو معروف ومكرور وليس للعياشي فيها أمر جديد، بخلاف تلك المسائل الثلاث التي أشار إليها العياشي في نصوص رحلته، فهي تكشف عن جانب خفي من تلك المجتمعات، وترفع الحجاب عن القوة الخفية التي كانت مسيطرة على فكر الناس في تلك الفترة، فهناك سمة غالبية شكلت الوعي العام لدى الناس أدت إلى ظهور التواكل الجماعي وهجران العمل المجتمعي المنتج. إنّ هذا النمط من التفكير الذي يلغي الفاعلية ويوسع من دائرة الاتكال والتواكل، ويؤمل في المعجزات الغيبية لأجل تحقيق مكاسب نفعية، ويطمح بطريقة ساذجة في تسخير قوى غيبية خارقة في خدمته، قد أخرج عموم الأمة حينها من دائرة صناعة الأحداث إلى حالة من التغذي على الأوهام، والاستئناس بالوجدانيات والتفاخر ببطولات الماضي.

لقد كشف المفكر مالك بن نبي هذه الحالة من العقم التفكري الذي وصلت إليه الأمة في عصور الانحطاط، وتكلم عن هذا المرض بإسهاب في كتابه المرجع "شروط النهضة" والذي بين فيه أنّ نخوض أي أمة يبدأ بغرس الفكرة الصحيح والحية فيها قبل كل شيء، وأنّ من سمات المجتمعات المتعثر حضارياً هو انتشار الأفكار الميتة فيها، وركونها إلى فهم وقعها من خلال تلك التصورات المغلوطة.⁵⁷

خاتمة:

سعت هذه الورقة البحثية إلى كشف أهم المسائل المتعلقة بالغيبيات والتي رصدها العياشي في رحلته قد خلصت في ختامها إلى مجموعة من النتائج يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- إن كتاب العياشي عن رحلته هو أشبه بالتقرير الميداني عن أهم الأفكار التي كانت سائدة في زمانه، وقد ساعدت تلك المشاهدات والملاحظات التي أثنى بها ديوان رحلته على التعرف على المهمات من تلك الأفكار التي أسست لوعي تلك المجتمعات بواقعها.

⁵⁶ - ينظر الرحلة، ج:1، صفحات: 81، 84، 121، 205، 173، 236، 238، 431، 440.

⁵⁷ - ينظر مالك بن نبي، شروط النهضة، محور أثر الفكر الدينية في تكوين الحضارة، ص:61.

- إنّ المسائل الشرعية التي رآها العياشي تستحق التدوين والنقاش كانت في غالبها جواباً لسؤال طرح عليه، وأحياناً تكون استطراداً منه في التعقيب على قصة سمعها، كالحادثة التي سمعها عن المالكي الذي صلى بالسدل والإرسال في بيئة سنية فظنوه شيعياً، فعقب عليها العياشي برد طويل نصر فيه مذهب القبض عند المالكية.⁵⁸

- حاول العياشي عند تناوله لمسائل الفقه الاعتيادية التوسع قدر الإمكان في الجواب، بخلاف مسائل الحكم والسياسة العامة إذا كان يشير بشكل مقتضب إلى المخالفات الشرعية، كانتقاده لمسألة المكوس ودفع الرشوة للحصول على المناصب العامة، وكتقصير أمراء الحج في حماية الحجاج.

- لم يتناول العياشي أخبار القوة الخارجية، باستثناء قصة النصراني الذي تسلل إلى ركب الحجاج بعد أن تكسرت سفينته، وتعجب من قدرته على التخفي.

- اعتماد العياشي على مسلك المتابعة والتسليم عند تعامله مع منامات المشايخ وكرامة الأولياء، فلم يتكلم فيها بلسان النقد والتمحيص الذي كان يعتمد في مسائل الفقه، وفي ذلك تأكيد على سلطان الغيبات في زمانه.

- يظهر البعد الغيبي المتحكم في زمن العياشي انعدام الفاعلية في تلك المجتمعات وشيوع روح الاتكال وانتظار معجزات الغيب، وهذه الاتكال الغيبي هو الذي دفع فئات من المسلمين عند الهجمة الاستعمارية في القرن التاسع عشر إلى مواجهتها بقراءة صحيح البخاري والدعاء والتضرع عند قبور الصالحين.

- إنّ هذه التشوهات الفكرية التي سادت في تلك المجتمعات قد صيرتها أوساطاً مستباحة دون مناعة فكرية، وجعلت منها أيضاً بقعة ميتة حضارياً ومختزقة استراتيجياً، وهذا ما أغرى القوة الاستعمارية به في ذلك الزمن، التي كانت تبني قوة عسكرية ضاربة ستكون الأداة الأولى في بسط سيطرتها الحضارية.

قائمة المراجع:

- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، السعدية: دار ابن عفان 1992م.
- ابن القيم، إعلام الموقعين، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن عابدين، رد المحتار، بيروت: دار الفكر، 1992م.
- أبو سالم العياشي، اتحاف الأخلاء، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م.

- أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1996م.
- أبو سالم العياشي، الرحلة، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006م.
- أحمد بن إدريس القرافي، الفروق، الناشر عالم الكتب.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، بيروت: دار المعرفة 1379هـ.
- الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، بيروت: دار الكتب العلمية 1990م.
- بدر الدين ابن محمد الزركشي، البحر المحیط، دار الکتبی 1994م.
- جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م.
- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الجزائر: دار الإمام مالك 2022م، ص: 545.
- عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، بيروت، دار الفكر، 1997م.
- عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات، الرياض: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2005م.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، دمشق: دار الفكر، 1986م.
- محمد الحججي، الزاوية الدلائية ودورها العلمي والديني، الرباط: المطبعة الوطنية، 1988م.
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير، دار طوق النجاة، 1422هـ.
- محمد بن علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م.
- يحيى بن شرف النووي، المنهاج، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392هـ.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التراث العربي.